مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 3 السنة: 2020
ص: 75 - 98 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الخطاب السردي الوطاري والرؤية المادية للعالم

Taher Wattar's Narrative Discourse and the Materialistic World Vision

الدكتور نور الدين بن نعيجة*

Noureddine Benaidja

مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط (الجزائر)

CRSIC- Laghouat- Algeria

n.benaidja@gmail.com

تاريخ الإرسال:2019/12/05	تاريخ القبول:2020/04/01	تاريخ النشر: 2020/09/15

ملخص البحث

يعتبر الخطاب السردي الجزائري من بين الخطابات الأساسية، التي كانت شاهدة على الأحداث التاريخية للمجتمع الجزائري، هذه الأحداث التي أبانت ورسمت مساره واتجاهاته الاجتماعية، والاقتصادية والثقافية، والسياسية، فكانت الرواية هي الشاهد عليها لتدونها بإيجابياتها وسلبياتها، لكن بنظرة إيديولوجية –طبعاً– لا تخرج عن رؤية الكاتب للعالم وللكون. ولأنّ الطاهر وطار هو من رواد الرواية الجزائرية العربية، فسنحاول في هذا المقال تقصي رؤيته الكونية، ومعالجته لتلك الأحداث من خلال علاقته بالفكر الجدلي المادي، ومدى تأثره به في كتاباته السردية.

الكلمات المفتاح : طاهر وطار ؛ الخطاب السردي ؛ رؤية العالم ؛ ماركسية ؛ شيوعية.

Abstract :

The Algerian narrative discourse is one of the main speeches that were witness to historical events of Algerian society. These events were illustrated and sketched its social, economic, cultural and political path and trends. Therefore, the novel was the witness to prove its positive and negative aspects. but with an ideological view - of course - does not go beyond the writer's vision of the world and the universe. And because TaherWattar is the "father" of the Algerian Arabic novel, we will try in this article to explore his cosmic vision and how to deal with these events through his relationship to materialistic thought, and to know how affected this novelistis in his writings narrative.

Keywords: Taher Wattar; Narrative Discourse; World Vision; Marxism; Communism.

* د.نورالدين بن نعيجة. n.benaidja@gmail.com

مقدمة

تعتبر الرواية باتفاق النقّاد والمفكرين، أحد الفنون الأدبية التّي ظهرت في العصر الحديث، نتيجة التقاطبات والصراعات الطبقية بين مختلف أفراد المجتمع، واستغلال الانسان للإنسان، لتكون بذلك وسيلة أساسية تعبّر عن الذّات وبواطنها، وعن حياة المجتمعات وظواهرها، بكلّ تناقضاتها الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية. مستخدمةً بذلك اللغة كوسيلة للتعبير، والإبداع، والوصف.

ولأنّ الرواية هي الفضاء الروحي للإنسان، والإنسان جزء من المجتمع، كان لا بد للكاتب أو الروائي أن يتفاعل مع تلك الحياة الاجتماعية، لأنه جزء منها، لا يستطيع الفكاك منها بأي حال من الأحوال، بل إنّه المعبر عن تلك الحياة بكلّ ما تحمل من أفراح وأتراح، وهو الذي ينقل هموم المجتمعات ومعاناتهم، ويصوّر لنا مختلف الظواهر الاجتماعية لمجتمعه عبر نقل الوعي الفعلي لتلك المجتمعات، ورؤيته المتطلّعة لممكن أفضل لها.

ولأنّ الفنان أو الروائي هو مثقف يحمل عبء الحياة وتناقضاتها، فهو حامل لإيديولوجيا أو رؤية كونية تجعل من أفكاره جماعية لا فردية، لأنها تعبر عن واقعة اجتماعية تنتمي إلى مجموعة معينة كما يرى «غولدمان» من منظور مادي جدلي، "لأنّ الأدب والفلسفة من حيث أنهما تعبّران عن رؤية للعالم —في مستويين مختلفين– فإنّ هذه الرؤية ليست واقعة فردية، بل واقعة اجتماعية تنتمي إلى مجموعة، أو إلى طبقة اجتماعية. وتبعاً لبرهنته، فإنّ أي رؤية للعالم هي وجهة نظر متناسقة ووحدوية حول مجموع واقع، وفكر الأفراد الذي يندر أن يكون متناسقاً، ووحدوياً باستثناء بعض الحالات. لا يتعلق الأمر هنا بوحدة ميتافيزيقية، ومجردة، بدون جسم، ولا شكل، بل يتعلق الأمر بنسق فكري يفرض نفسه، في بعض الشروط على مجموعة من الناس توجد في شروط متشابهة، أي على بعض الطبقات الاجتماعية."[1]

فالكتابة الأدبية بصفة عامة والسردية بصفة خاصة حسب «غولدمان» لا تعبر عن رؤية فردية وإنما عن رؤية منتمية لجماعة أو طبقة معينة. ومن هذا المنطلق سنحاول في هذا المقال الغوص في المتن الوطاري والبحث فيه من منطلق الجدلية المادية، لنكشف عن مدى ارتباطه بتلك

المجموعة، وكيف كان الخطاب السردي الجزائري في تلك الفترة يتماهى وينسجم معها؟ وكيف كان الروائي يستعمل الخطاب السردي من أجل بث تلك الرؤى والأفكار انطلاقا من رؤية كونية؟.

يعتبر الطاهر وطار من رواد الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية، لما له من إسهامات بارزة في هذ المجال فقد ترك مدونة كبيرة من روايات جسّدت أغلب المراحل التاريخية للشعب الجزائري في تلك الفترة، وصراعه الدائم مع الحياة، بدءً من الثورة التحريرية وما شباها من خلافات ايديولوجية بين الأخوة الثوار، مروراً بمرحلة الاشتراكية، وانتهاءً بمرحلة العشرية السوداء أو الحمراء كما يسميها البعض.

هذا التأريخ للمجتمع لم يكن بنظرة محايدة ولا موضوعية، وإنما كان بنظرة إيديولوجيا – طبعاً– فالكاتب –كما أشرنا سابقاً– هو فنّان يعبّر عن رؤية المجموعة التي ينتمي إليها، فيجسّد أفكارها ورؤاها في متنه السردي، ويبثّ خطابها الإيديولوجي عبر الخطاب الذي ينسجه ويدبّجه، وفق تلك الرؤى والقناعات.

إذا ما انتقلنا إلى الخطاب السردي الوطاري، نجده ينقسم إلى مرحلتين مرحلة أولى تميزت بالأدلجة الفاضحة والمكشوفة مع روايات "رمانة"، "اللاز"، "الزلزال"، "الحوات والقصر"، "عرس بغل" ، "العشق والموت في الزمن الحراشي"، "تجربة في العشق". أما المرحلة الثانية فقد تميزت بدخول المتن الوطاري مرحلة التجريب الروائي باستعمال التقنيات الحديثة في الكتابة السردية وظهر ذلك في رواياته "الشمعة والدهاليز"، "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" ، و"الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء".

ومن خلال هاته الروايات سنقسم هذا المقال لأنماط مختلفة من الرؤى تجسد رؤية الكاتب للعالم ونظهر مدى ارتباطها بالجدلية المادية.

1–الرؤية الثورية:

تعتبر الرؤية الثورية من بين أهم الرؤى التي تباناها الطاهر وطار الذي عرف بثوريته وتمرّده على كافة أشكال الظلم، والقهر، والسلب، والإذلال. وقد ظهر ذلك بالفعل في جلّ كتاباته الروائية، خاصة في كتاباته الأولى التّي نجد فيها البطل الثوري والإشكالي، هو البطل الأساسي في متنه السردي، وهي "نماذج خلقها الروائي، وحمّلها مضامين وأفكاراً يحارب بها سلبيات الواقع، قصد الانتقال بهذا الواقع من حالة الانغلاق إلى حالة أخرى أكثر تفتحاً وإنسانيةً، ومن ظروف

السيطرة، والكبت إلى ظروف الحرية والمساواة."[2] ويظهر ذلك جلياً في رواية "اللاز" الذي يظهر فيه حلم «الطاهر وطار» على ضرورة تغيير الأوضاع الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، عبر تلك القناعة الفكرية والإيديولوجية التّي سيطرت على «زيدان» وأتباعه بشكل متباين.

هذه الشّخصية المحورية في رواية "اللاز"، والتي بالرغم من كونها شخصية تخييلية، إلاّ أنّ الكاتب أوجدها من شخصية واقعية، تجسد مرحلة الثورة وما شابها من صراعات إيديولوجية، إذ يصرح في احدى حواراته "وشخصية زيدان بطل رواية "اللاز"، وظفت جزءًا كبيراً من سيرة المناضل الشيوعي «العيد العمراني» عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري الذي التحق بالثورة التحريرية، وذبح في النهاية مثلما تحكي الرواية."[3] فالكاتب عبر هذه الشخصية أراد أن يُظهر دور الشيوعية في الثورة التحريرية ومدى ظلم الثورة لها، مما يبرز ذلك التعاطف الكبير بين الكاتب وتلك المجموعة التي أراد أن ينتصر لها في الرواية، إذ جعل بؤرة الحكي متمركزة حول شخصية «زيدان» الشيوعي ذي الأفكار الماركسية، بل وحتى وعي الشخصيات المساهمة في الحكاية لم يخرج وعيها عن وعي «زيدان»، الذي كان له دور كبير ومؤثر على تفكيرها، وفي تحيين وعيها.

فقد استطاع أن يحوّلها من شخصيات سلبية، غير فاعلة في المجتمع، إلى شخصيات كان لها الأثر البالغ، والدور اللامع، على القرية وعلى الثورة التحريرية، وذلك بسبب تشبعها بالوعي، وبالفكر الماركسي الشيوعي.

ونجد ذلك التأثير مع أخيه «حمو» الذي تطوّر وعيه، وأصبح يطمح إلى تغيير الواقع من جذوره. ليس بطرد المستعمر فقط، وإنّما بتحقيق الرفاه والانتصار للإنسان كإنسان.

"يقول زيدان إنها لائقة بالفقراء والمساكين، وضد الأغنياء وكبار الملاّك. المجاهدون كلهم من الفقراء والمساكين، وكل ليلة نذبح عدداً كبيراً من الأغنياء لأنهم ضدنا، ضد الثورة... لا يكتفون بمنع الإعانة عنا، بل يشون بنا للعدو..."[4]

"حاول مرة أن يفهمني، فقال: في الحياة نوعان من الناس، نوع يعرق مثلك ومثل كلّ العمال والعاطلين، ونوع يستفيد من هذا العرق... وما لم يتحطم النوع الثاني، فإنّ عرق الإنسانية يظل يسير هدراً، مصلحة كلّ نوع يتعارض مع مصلحة النوع الآخر، ولهذا فهما عدوّان لدودان. اقتنع أولاً بهذا وتأمل فيه، وسأفهمك في أمور أخرى." [5]

ويوجد الكثير من هذه النماذج الذي تظهر شخصية «حمو» المنسجمةً إلى حدّ التماهي مع أقوال وأفعال «زيدان».

كما نجد «قدور» ، قد تأثر بأفكار «زيدان»، إذ نجده تحوّل من ذلك الأميّ الفلاح، الذي جاء إلى القرية ليعمل ويكدّ في الفرن، من أجل أن يدخل غمار التجارة وشراء عربة كبيرة للشحن، إلى المناضل في صفوف الثورة التحريرية، متخلياً على كلّ أشكال الوعي الزائف، طامحاً إلى التغيير الجذري في المجتمع.

"إذا كان أحمر(يقصد به زيدان)، فيجب أن نحمرّ كلنا، يجب أن تحمرّ الثورة كلّها لتفكر تفكيراً سليماً، وتصدر أحكاماً صحيحة..." [6]

وإذا ما انتقلنا إلى المنظور الإيديولوجي لشخصية «اللاز» وهي الشّخصية الرئيسية في الرواية –حسب الكاتب– نجده عاش نفس الظروف الاجتماعية التّي عاشها «زيدان»، و«قدور»، و«حمو»، وكل سكان القرية، مما جعله يتأثر مثلهم بشخصية «زيدان»، ويتعلق بها، وبأفكارها الشيوعية المناهضة للأغنياء.

"أبي المسكين... الأحمر. ترى لماذا هو أحمر؟ ألأنه يشتغل بالسياسة ويحقد على الأغنياء؟ إذن فأنا بدوري أحمر... رغم عدم معرفتي للسياسة، فإنني أبغض الأغنياء وأبناءهم المأبونين وبناتهم العاهرات. آه لو كنت أُحسن القراءة مثل أبي، لكنت أحمر بحق." [7]

كما نجد في رواية "العشق والموت في الزمن الحراشي" وهي الجزء الثاني من رواية اللاز، شخصية «بعطوش»، وهي شخصية خائنة، التحقت بصفوف الثورة التحريرية في ظروف دراماتيكية وتقلّدها للمناصب فيما بعد، تردد أقوال «زيدان»، وتقرّ أفعالها.

"قال له مرة، عندما حدثه عن أفكار زيدان. هذا هو الصح وإلا كنا نعدها لغيرنا. ثم ضحك وواصل "أخدمها يا التاعس للناعس. كلّها يا الراقد بالنوم". إذا لم نكن رجالا فحولا. أكلنا الأغنياء وأولادهم. أفكار زيدان، هي، هذا الذي نفعله كله." [8]

وهنا نجد كذلك شخصية «بعطوش» متأثرة بأفكار «زيدان» وبوعيه الإيديولوجي، ليكون السرد في هاتين الروايتين مرتبطاً بالأساس مع وعي «زيدان» الشيوعي الماركسي. هذا الأخير الذي جعل منه الكاتب شخصية مركزية، تدور في فلك تفكيره وإيديولوجيته كلّ الشّخصيات في الرواية، فقد كان تأثّرهم، وتماهيهم، وانبهارهم به، بسبب أفكاره المعادية للأغنياء، وتعاطفه مع

الفقراء والمساكين، هذا الأمر الذي تعمّد الكاتب توظيفه في متنه السردي، لأنّ غالبية الشّعب الجزائري متموقع في تلك الطبقة.

وهنا نستطيع القول أن الرؤية الثورية عند الطاهر وطار لم تقتصر على الثورة ضد المستعمر، وإنما تعدتها إلى الثورة ضد كل أنواع الظلم والاستبداد، ورؤيته الثورية هنا مستمدة من الرؤية الماركسية والشيوعية التي تنتصر للإنسان، وتحاول تخليصه من كافة القيود التي قد تقيّده.

2-الرؤية التاريخية:

إنّ المتتبع للكتابة السردية يجد في جوهرها صياغة تاريخية يحاول الروائي من خلالها بناء نسيجه السردي، وفق ما يأخذ، وما يضع من هذا التّاريخ، وتعتبر الكتابة الوطارية من الكتابات التي تنظر إلى الحاضر من خلال عين التاريخ، فهو يربط الواقع ومشاكل المجتمع دائما بالتاريخ وبحركيته، لأنّ حاضرنا هو نتاج ماضينا الذي لم نع منه أخطائنا، ولم نستفد من تلك الحركية التي تقدم لنا تجارب أسلافنا. إذ يقول:

"ما حدث في بلادنا وما يحدث الآن أيضا لا يخضع لحركات الأفراد، وإنّما لحركة التّاريخ، وما حركات الأفراد إلاّ ظواهر لحركة المجتمع. وكما أن شعبنا لم يكن بطلا كله، فإنّه لم يكن مترديا كله."[9]

فالتاريخ في سيرورته هو ترجمة لحياة المجتمع، ومرآته العاكسة لحركيته، وهذا الكلام هو مقتبس من المقولة الجدلية التّاريخية لـ «كارل ماركس»، "التاريخ يعيد نفسه"، وكذلك مقولته الشهيرة "التاريخ يعيد نفسه مرتين: مرة على شكل مأساة، ومرة على شكل مهزلة... وما نراه الآن هو المهزلة!"، وهذا ما نظن أن «الطاهر وطار» يقصده، فالتاريخ يعيد نفسه بتكرار المآسي ذاتها، مرة على يد المستعمر الغاشم الذي أذاق الشعب الجزائري ويلات العذاب، ومرة على يد أبناء جلدتنا بقتل بعضنا لبعض بأبشع الطرق، في انتظار مستقبل يسوده الشك.

وهنا يستعيد الطاهر وطار الأحداث التاريخية في رواية "عرس بغل" قصد وعيها وربطها بنظرته الكونية، فيستدعي حركة القرامطة التّي طالما نبذت، وظلمت حسب الكاتب "أيها التّاريخ لست سوى ما يكتبه الأعداء المنتصرون عند الخصوم المنهزمين"[10]. فهو أراد أن يسلّط الضوء عليها، وأن ينتصر لها، بإظهار وجهها الآخر الذي امتازت به، وهو العدل بين الناس، ونستطيع القول أن هذه الحركة، قد سبقت الاشتراكية، والماركسية في نظرتها للمجتمع، وللفرد، بتحقيقها

لمبدأ العدالة الاجتماعية، وحرية التديّن، والتّي لم يفتأ ينادي بها الكاتب في مساره السردي من خلال عمل أدبي واعي، يحاول من خلاله تجسيد وعي الجماعة التّي ينتمي إليها، ويتحدث باسمها، عبر الكتابة السردية التخييلية التّي تتيح له قول ما لا يستطيع المؤرّخ قوله، كون الرواية هي التّاريخ الّذي لم يكتبه المؤرّخون على قول بعض النقاد.

"كنت أعلم يا حمدان أنني لا أجد معك أية صعوبة. إنك مقتنع سلفاً. لم يبق لكم ملجأ يا حمدان. تردت أوضاعكم وتردت حتى لم يعد هناك، وضع أسوأ تخشونه. السواد الثري الخصب ضاق بكم. تشتغلون الليل والنهار في الأرض وتبيتون جياعاً؟ الماء لم يعد يغذي أطفالكم، تنجبونهم لتسمدوا بهم أرض أسيادكم، إنكم مضرب الأمثال في الفقر وأكثر الأحرار فقراً"[11]

فالكاتب يبرز تعاطفه الواضح مع شخصية «حمدان قرمط» هذه الشّخصية التّاريخية التّي أراد أن ينتصر لها في الوعي الجمعي، باعتباره "تجرأ على إلغاء الملكية الخاصة، فلم يبق في ملكية الفرد القرمطي إلاّ سيفه، أو سلاحه، وأقام في كلّ قرية رجلاً مختاراً من الثقات، فجمع عنده أموال قريته من غنم، وبقر، وحلي، ومتاع، وغير ذلك، فكان يكسو عاريهم، وينفق عليهم ما يكفيهم، حتى أنّه لم يبق بينهم فقير، ولا محتاج... فقد استطاع حمدان تحقيق هذه المعجزة الاجتماعية المذهلة أواخر القرن الثالث للهجرة 276هـ، وأطلق ذلك المجتمع الاشتراكي الخاص اسم "دار الهجرة"."[12]

كما تظهر في روايات الطاهر وطار استرجاع لبعض الشخصيات الدينية وتوظيفها في المتن الحكائي، خاصة في رواية "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" والذي يسعى من خلالها إلى ابراز ظواهر اجتماعية آنية كالقتل باسم الدين، وهو هنا يعيد فتح باب التراث من أجل قراءة واقعية، بعيداً عن العاطفة الدّينية، وهذا العمل لا يتأتى إلاّ من خلال وعي الكاتب بالتاريخ، وبالتراث الذي يستلهمه، إذ نجد «الطاهر وطار» يصرح في إحدى المجلات: "...أنا أحفظ التراث، وأنا جزء منه، وأنا أتفاعل معه، أنا الوجه المغتسل والمتوضئ في التراث. وأكرر: أنا لا أقول إنني استفدت من التراث بل التراث أنا..."[13]

فالكاتب –حسب قوله وحسب تجربته الابداعية– مطّلع على التراث اطلاعاً كبيراً يمكنه من خوض تجربة الكتابة في هذا المجال بكلّ اقتدار، كما يمكّنه من الغوص في دهاليزه المظلمة، من أجل إعادة البحث في هذا التراث، والتنقيب عن كلّ ما ترسّخ في ذهن الوعي الجمعي المغلوط. لذا فقد جاءت هذه الرواية عبارة عن تجليات تمثلت في "رحلة معراجية خيالية متأثرة بالمعراج

الروحي لدى الصوفية. ويقوم «الولي الطاهر» بذلك المعراج الخيالي الذي تتجلى له فيه شخصيات تاريخية، ودينية كثيرة من أهمّها شخصية «خالد بن الوليد»، «مالك بن نويرة»، «عمر بن الخطاب».."[14] لتنتقل صعوداً، ونزولاً بين الحاضر، والماضي بكلّ ما يحمل من تناقضات.

وعند وقوفنا على هذه الرواية نجد اشتغال الكاتب على التّاريخ المؤدلج، باعتماده على محطات تاريخية من التّاريخ الإسلامي، وهو يقول في مقدمة روايته: "اتكأت في هذا العمل على حالة وقف أمامها خليفتان، لا نقاش في نزاهتهما موقفين متضادين. هي حالة قتل «خالد بن الوليد»، لـ «مالك بن نويرة»، ففي حين طالب «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه، برجم «خالد»، وهذا موقف مبدئي في منتهى الصرامة والقسوة، قال أبوبكر رضي الله عنه، لقد اجتهد خالد... وخلاصته، أنّه يشك في إصابته، فله أجر واحد. والتراجيدي في مسألة مالك «الشاعر» الظريف الذي وهبه الله جمالا خارقاً، ليس في موته، وإنّما في النذر العنيف الذي حققه خالد، وهو جعل رأس مالك هذا أثفية، تضع عليها أرملته «أم متمم» القدر."[15]

وهو هنا يحاول تسليط ضوء التاريخ على الحاضر، ويسقطه عليه من أجل فهم الراهن، إذ يسترجع تلك الحوادث التاريخية، ويستدعي شخصياتها مثلما نجده في الصحابي «خالد بن وليد» الذي يقدمه كشخصية مغلفة بنوايا التشكيك، والطعن، وذلك عبر حادثة قتل «مالك بن نويرة». وهو في هذا المقام يحاول إبراز ظاهرة العنف الديني الموجود في المجتمع منذ القديم، والقتل باسم الدين، هذه الظاهرة التّي طالما عانت منها المجتمعات العربية، والإسلامية عموماً، والجزائر خصوصا، محاولاً –الكاتب– ربطها بسياقها التّاريخي من منطلق ايديولوجي معادي لكلّ ظواهر القتل باسم الدين، وارجاعها إلى فترة بدايات الإسلام مع الخلفاء الراشدين، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك من خلال وعي مكثف، يطرح الأسئلة التّي لا تطرح إلاّ في الرواية، كونها عمل تخييلي يمكنها من البوح، واستعادة تلك الصراعات التّاريخية التّي ظلت طي الكتمان.

من هنا كانت رؤية الطاهر وطار للتاريخ، ضمن الرؤية الجدلية المادية التي تحاول تقصي حركية التاريخ، والاستفادة من تجاربه، ووعي أحداثه الدراماتيكية، كما أبانت تلك الرؤية على قدرة الكاتب وتمكنه من معالجة قضايا التراث الذي استخدمه استخداماً مؤدلجاً، اتكأ عليه من أجل تعزيز رؤيته للعالم وللكون.

3–الرؤية الدينية:

أما نظرته للدين فتظهر من خلال شخصية «الحاج كيان» وهي شخصية رئيسية في الرواية "عرس بغل"، والتي تلقت تعليماً دينياً في أكبر جوامع العالم، وأعرقها "جامع الزيتونة" إلاّ أن ذلك لم يمنعها من الخروج عن تعاليمها، بسبب افتقار تلك الجوامع إلى منهج فكري مقنع –حسب رأي الكاتب– مما جعله يبحث عن أجوبة تروي تساؤلاته، وتستجيب لوعيه الباحث عن حلول لمشاكل مجتمعه، وشعبه، ففي حوار له مع إحدى المجلات يذكر «الطاهر وطار»:

"... في جامع الزيتونة في تونس لم أقتنع أصلا بما كنا نقرأه. نقضي سنوات في تعلم كيف تصلي، وكيف تتوضأ وهي أمور لا تحتاج إلى كلّ ذلك الجهد. أيامها كان الشباب شبه مضطر إلى الانتماء إلى مدرسة فكرية، وكنت مخيراً بين البعثية والماركسية، وعندما قدم لي دستور حزب البعث الاشتراكي وجدت أن البعثية هي اقتضاض مشوه للأفكار الماركسية، فرددت بالحرف الواحد ذلك المثل التونسي الذي يقول: "كافر، ولا نصف مؤمن"[16]

وهنا نجد شخصية الروائي تتداخل مع شخصية «الحاج كيان» الذي درس بجامع الزيتونة، وينقل لنا السارد جانباً من الحوارات بين «الحاج كيان»، وبين معلمه بالزيتونة حول العقيدة:

"تأملوا عمق ما اهتدى إليه الأشعري. كلّ ما يخطر ببالك فالله ليس كذلك. جبل لا. سحاب لا. (...)

–عرفته سيدي الشيخ عرفته.

– ما هو. كيف تتمكن من معرفته وأبو الحسن الأشعري يعلن استحالة ذلك؟

–لا شيء. لا شيء إطلاقاً. حاشاه جل وعلا أن يكون شيئاً. يكون عندما ينتفي كلّ تصوّر له.

–أحسنت. أحسنت. أيها النجيب. كلّ ما يخطر ببالك فهو ليس كذلك. لقد أضفت جديداً أيها الجزائري النجيب. يكون عندما ينتفي كلّ تصوّر له. وأنا ألخص كلامك هذا هكذا: لا يكون ويكون. الإيمان به، كما ليس هو، وليس كما هو.

–إنه غير موجود إطلاقاً حينئذ.

–من هذا المعتزلي الكلب. من هذا الكافر الجاحد. من هذا الباطني اللعين..."[17]

هنا نجد «الطاهر وطار» ينتقد طريقة التعليم في الزيتونة، المبنية على التسليم بالمسلمات الإلهية دون المناقشة، ودون إدراك ووعي، وهذا مأخوذ من الفكر الماركسي، الذي يدعو إلى الابتعاد عن اللاهوتية، وتقديس العقل، والعلم، والالتفات إلى الشعوب، وبعث الوعي فيها.

كما نجد «الحاج كيان» قد تأثّر بشخصية «حسن البنّا» عندما قدمها لهم الشيخ المدرس:

"حسن البنّا أيها الملاحدة، أسس حزباً. أساسه الكتاب والسنة والجهاد في سبيل الله. حسن البنا، ليس عالماً دينياً غارقاً في النظريات والتفسير، وإنّما هو قائد، ومعلم ومجاهد. تصوروا أنّه يبث دعوته في كلّ مكان، في الشوارع. والمقاهي، في الساحات العامة، في القاعات السينمائية. في المسارح، في كلّ مكان يمكن أن يتجمهر فيه الناس. الشيخ، يقتحم حتى... آه حتى. تصوروا أين يقتحم الشيخ. (...)

–دور البغاء سيدي.

من هذا؟ الجزائري، أحسنت أيها النجيب. أحسنت. الشيخ يقتحم دور البغاء ويبث الدعوة هنالك." [18]

فكانت شخصية «حسن البنّا» بالنسبة لـ «الحاج كيان»، شخصية تستحق أن تكون قدوة، وأسوة فتأثر بها، وقرّر أن ينتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين من أجل نشر الدعوة في المواخير، وربّما هذه الأخيرة هي من استهوت «الحاج كيان» للانخراط في هذا العمل الدعوي، وذلك ليظهر لنا الكاتب حالة الكبت التّي تعاني منها تلك الشّخصيات الدينية، وقد يدعم هذا الرأي الصّورة التّي أظهرت طلاب الزيتونة في حالة، هم بعيدون فيها أشدّ البعد عن الدين، إذ كانوا من بين الزبائن الدائمين في ماخور «العنابية».

"اليوم الخميس، وستصادف كثيراً من الزيتونيين هناك، ينفقون المبالغ الزهيدة التّي ترسل إليهم، ويعوضون على ذلك بالصوم أسبوعين على الأقل." [19]

فالكاتب أراد أن يظهر الشّخصية الدينية، وطلاب العلم في صفة النفاق، إذ يجمعون بين الانتماء للدين، ومخالفته في نفس الوقت، بارتكابهم المعاصي، والتكفير عنها بالمكفرات.

ويذهب «الحاج كيان» إلى الماخور لينفذ مهمته، لكنها باءت بالفشل، فعوض نشر الدعوة وتخليص الفتيات من دور البغاء وتجنيدهم لصالح الإخوان المسلمين، أصبح «الحاج كيان» هو

أحد أفراد سكان المواخير، إذ لم يستطع مقاومة «العنابية» التّي استحوذت على شعوره، وعلى كيانه ليصبح هزيأً في خدمتها.

وكأنّ الكاتب أراد أن يسلّط الضوء على فشل جماعة الإخوان في محاربة الواقع المتردي، بل، والانغماس فيه. وهذه رؤية إيديولوجية أراد الكاتب أن يوظفها من أجل ربط المقدس مع المدنس، وأنّ هذه الجماعة والحركة، تجمع بين المتناقضات في معايشتها، ومعالجتها للواقع، وكأن الحركات الإسلامية قدّر لها أن تكون إما متطرفة ترفض الواقع وتنتهج العنف من أجل تغيير هذا الواقع، أو معتدلة لكنها لم تستطع التغيير لأنّها انغمست في قاع الواقع.

كما نجده يوظف شخصيات دينية في رواية "الزلزال" على أنها شخصيات اقطاعية انتهازية مثل شخصية «عبد المجيد بولرواح»، وهذا ما يجعلنا نطرح السؤال: ما علاقة الاقطاعيين بالدين والعلماء؟ خاصة عندما نجد «الطاهر وطار» يوظف تلك الشّخصية البرجوازية الاقطاعية، كشخصية دينية حافظة لكتاب الله، بل ومن رجال «الشيخ ابن باديس».

"قرأنا العلم في الريف، وجالسنا العلماء، وكافحنا مع الشيخ ابن باديس تغمده الله برحمته الواسعة، وتفقهنا في المذاهب الأربعة، ولم نعثر، على هذا المنكر.

لا. الشيء لمن يملكه، والتمليك وارد في القرآن الكريم..."[20]

فشخصية «بوالارواح» أراد لها الكاتب أن تجمع بين الاقطاعية، وبين رجال الدين، خاصة رجال جمعية العلماء المسلمين، المناهضة للشيوعية وللاشتراكية في ذلك الوقت. فالكاتب بالرغم من أنه درس وتفقه في "جمعية العلماء، بقسنطينة في معهد الإمام عبد الحميد ابن باديس سنة 1952"[21] إلا أنه أصبح ناقداً لتلك الجمعية بسبب عداءها للشيوعية والاشتراكية، ومن هنا يكون لزاماً عليه الدفاع عن رؤيته للعالم وعن المجموعة التي أصبح ينتمي إليها.

من هنا تكون الرؤية الدينية عند الطاهر وطار هي رؤية تبحث عن الفرد، وتحاول فهم ما يحيط به من ظواهر طبيعية بعيداً اللاهوتية وعن الميتافيزيقيا، من خلال إعمال العقل. كما تظهر الرؤية الدينية عند الكاتب بنقد الشخصيات الدينية المتطرفة، وإرجاعها إلى بدايات الخلافة الاسلامية، ونقد حركة الإخوان المسلمين، وجمعية العلماء المسلمين التي ناهضت الشيوعية في ذلك الوقت. كل هذا يظهر أن الطاهر وطار كان ينظر إلى الدين بعين ماركسية ناقدة لسلوكيات أفراده، لا نقداً للدين في حد ذاته لأن "الماركسية لم تأت كتحدٍ للإله وتمرد على السماء، فعالمها

لا يكمن في السماء، بل هنا على الأرض، في هذا العالم الذي حكمه ومنذ زمن سحيق، صراع بين المستغلين (بفتح-الغين) والمستغلين (بكسر الغين)"[22]

4-الرؤية الثقافية:

لم تغب الرؤية الثقافية عن الخطاب الوطاري، باعتبار أنّ الجزائر تعاني من مشكل ثقافي هوياتي كبير، جراء استعمار دام أكثر من قرن من الزمن. ويظهر ذلك في حوارات شخصية «الشاعر» مع شخصية «عمار بن ياسر» عندما ينتقد الثقافة الجزائرية، خاصة المسؤولين الذين لم يستطيعوا التخلص من ثقافة المستعمر، ونمط حياتهم.

"أولئك الذين دخلوا دهليز الثقافة الفرنسية، ونمط الحياة الغربية، وأغلقوا على أنفسهم يحتمون بالظلمة، رافضين أن تتقد أية شمعة حولهم. قرروا فيما بينهم، وبين أنفسهم، أن هذا البلد انقسم مرة وإلى الأبد، إلى قسمين: الماضي والمستقبل. الماضي البعيد والقريب، يتوجب الانسلاخ منه، بكلّ ما فيه تماما مثلما يفعل الثعبان، وهو يتخلص من جلده"[23].

وهنا تظهر الإيديولوجيا جليّة عند الكاتب في نقده للراهن، حيث يرى أنّ السلطة الحاكمة فصلت بين ماضي الشعب، وحاضره، في محاولة منها للانسلاخ من الهوية العربية، وحتى الاسلامية، ومحاولة ارغامه على دخول دهاليز الثقافة الفرنسية، دون مراعات للجانب التّاريخي، والحضاري للشعب. فالسلطة الحاكمة —حسب رأيه- تعيد تكرار التّاريخ وتعيد ما فعله الفرنسيون حين عمدوا إلى إلغاء خصوصية الشّعب الجزائري، وكما فعل العثمانيون، حين همشوا الجزائريين، ولم يعمدوا إلى إعمال الجانب الحضاري فيهم، بل اعتبرهم مجرد مزارعيين.

"إن الشّعب الجزائري على خلاف باقي أشقائه في المشرق والمغرب، افتقد، ومنذ عهد الأتراك الذين فرضوا عليه أن لا يتعدى مرحلة الإنسان المزارع (...) هذا الشعب، الذي لا يمتلك مدينة واحدة مشعة ثقافياً بعد قرن ونصف من استعمار استيطاني وثقافي آخر. ليس هناك القاهرة ابنة الأزهر «الشريف»، ولا تونس بنت جامع الزيتونة الأعظم، ولا دمشق، ولا بيروت، ولا بغداد"[24].

ربما كل هذه العوامل وغياب الجانب الهوياتي والثقافي في المجتمع جعل من المجتمع الجزائري يلتف حول الدّين ليوحدهم.

"فاستعادوا اللباس الذي انتزعه آباؤهم، كما استعادوا الشوارب واللحى التّي حلقوها قبل الميعاد، وغطوا الرؤوس الحاسرة، وتوجهوا إلى السادة يحدقون في أعينهم ويطلبون منهم بصرامة

وإصرار، التنحي، وركوب البحر والالتحاق بالسادة الأوروبيين. سكارى هادرين: لاإله إلاّ الله محمد رسول الله عليها نحيا وعليها نموت وعليها نلقى الله"[25]

وبما أن الحركات اليسارية طالما كانت مع الإنسان في كلّ الأحوال، ترافقه في السعي إلى مبتغاه نجد شخصية «الشاعر» تتعاطف مع هذه الحركة الإسلامية بالرغم من الاختلاف الأنطولوجي، والفكري بينهما، إلاّ أنّ تلك الشّخصية المثقّفة اليسارية، تُظهر تعاطفها مع تلك الحركة التّي أيّدها الشعب، والتفّ حولها، حتى كاد يندمج معها "قرر «الشاعر» في نفسه، وانسحب، يردد في خجل وتحفظ: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله عليها نحيا وعليها نموت وعليها نلقى الله."[26]

غير أنّ وعي شخصية «الشاعر» بالرغم من ما يصيبها من تداخل الأفكار وتصارعها، إلاّ أنّها تحاول تفسير الراهن، والبحث عن مسببات الأزمة الجزائرية، وسبب توحّد الشّعب مع الحركة الإسلامية، وذلك بتشريح عيوب الواقع الذي أصبح يقبع فيه المجتمع الجزائري، بعيداً عن هويته الأصلية، والمتمثلة في اللغة والدين، إذ عمد الكاتب إلى إبراز حال اللغة العربية المغيّبة، سواء في المجال الثقافي، أو حتى في الدوائر الرسمية التّي لم تستطع التخلص من الاستعمار اللغوي –إن صح التعبير– ويحسّ الشّعب أنّه لم يتخلص نهائياً من مستعمره، لأنّه لم يجد ذاته في محكوميه، بل مازال يقبع في استعمار ثقافي ثان يريد التخلص منه.

من هنا نجد أنّ «الطاهر وطار» لم يستغن عن الجانب الثقافي والهوياتي في متنه الوطاري، لقناعته التامة بضرورة معالجة هذا الجانب المهم في حياة الفرد وتماسك المجتمع. فكان ناقداً للسلطة وللدوائر الحكومية التي لم تعمد إلى تعزيز الهوية العربية والاسلامية في المجتمع الجزائري، بل تركته يتخبط بين لغة المستعمر، والأصولية الدينية المتطرفة، لتكون النتيجة هي غرق الشعب الجزائري في حمّامات من الدماء بسبب غياب الجانب الهوياتي والثقافي.

5–الرؤية الاقتصادية:

إنّ المتتبع للفكر الماركسي يجده يقوم على الاقتصاد والمجتمع، إذ يرى «ماركس» "أنّ بتغيير القاعدة الاقتصادية، يمتد التغيير، وعلى عجل، ليشمل التركيب الفوقي برمته، ليمس التغيرات في الشؤون القانونية، والسياسية، والروحية، والجمالية والفكرية، وباختصار، كلّ المسائل الايديولوجية التّي تشعر الناس بالتناقضات في حياتهم، وتدفع بهم إلى ميدان الصراع لتسويتها."[27] فالقاعدة

الاقتصادية هي التي تعيّن وعي الشعوب وتحدّدها. ومن هنا نجد أنّ البناء السفلي، والوجود الاقتصادي، والمادي، كان ومازال له الأثر البالغ على البناء الفوقي، ويبرهن «كارل ماركس» على ذلك بقوله في "البيان الشيوعي": "وهل يحتاج الأمر إلى قدرة خارقة على الفهم، لندرك أنّ أفكار الناس، وآرائهم، وتصوراتهم، أو بعبارة أخرى أحاسيسهم، ومشاعرهم، تتغيّر مع كلّ تبادل في أوضاع وجودهم المادي، وفي علاقاتهم وحياتهم الاجتماعية، وهل أثبت تاريخ الفكر، غير أنّ الأفكار في خصائصها تتغيّر تبعاً للتغيير في الإنتاج المادي، وأنّ الأفكار التّي غلبت في كلّ عصر، كانت أبداً أفكار الطبقات التّي سادت فيه."[28]

من هذا الطرح الجدلي الماركسي نجد «الطاهر وطار» يتطرق للجانب الاقتصادي من خلال سرد الأمكنة الاقتصادية في المجتمع، وقد قدّم لنا نموذجاً لتلك الأسواق في رواية "العشق والموت في الزمن الحراشي" عبر عدسة كاشفة لسوق "الحراش"، والأمكنة الأخرى الموازية له في العالم الثالث، باعتبارها تشترك في المعاناة، والتهميش، والفوضى، التّي تقبع فيها تلك الشعوب. فيسرد لنا الراوي ويوصف ذلك الفضاء وطريقة المبادلات فيه، وحلقات الحكماء، وباعة العقاقير، والشعراء رواة حكايات الصحابة، وأبطال الإسلام، وحكايات غدر النساء، والتداوي، وقراءة الكف، وغيرها من المظاهر التّي تبرز مدى غياب الوعي فيها، وعدم إدراك البعد الاقتصادي لتلك الأماكن. فالسوق هو فضاء للإنتاج والاستهلاك، وليس لبيع الوعي الزائف فيه، وهنا ينتقد الكاتب تلك الفوضى العارمة التّي تجتاح المكان، كما ينقد اختلال موازين القوى، وفقدان الأشياء لقيمتها.

" – أول ما يفقد قيمته في الزمن الحراشي. العملة. أنّنا لم نقتحم بعد الزمن الحراشي. هذا مدخل وليس غير – .هل تصوّرت ثمن القميص – ..أتصوّر فقط، أنّه أغلى من سعره الحقيقي في أوروبا المنسوب إليها بمائة مرة على الأقل – .فظيع. من سيشتري منهم بمثل هذه الأسعار؟ –من يبيعون بمثل أسعارهم، أو المحرمون من رخص الخروج من الشباب والعمال والكادحين، المعرضين لضغط المودة الغريبة، التّي تقيم لها البرجوازية، هذه السوق الموازية."[29]

يبرز السوق هنا على أنّه سوق موازية، أقامتها البرجوازية قصد السيطرة على مقدرات الطبقة الكادحة، التّي تقبع في ذلك المستنقع الفظيع، بدل أن يتشكل لديها وعي حقيقي بظروفها ونمط معيشتها. فتنتقل من وعي قائم خاضع لتلك البرجوازية، إلى وعي ممكن يمكنها من السيطرة على

مقدراتها، وأن تخدم نفسها بنفسها، بإقامة المصانع وتكثيف عملية الإنتاج، بدل أن تكون خاضعة للمودّة الغريبة لذلك السوق.

فالروائي هنا يحاول نقد ذلك التعلق الغير مبرّر للشعب، وخاصة الطبقة الكادحة بالأسواق الموازية التّي تتضاعف فيها أسعار السلع والمنتجات، دون أن تكون لها قيمة نفعية. وفي الحقيقة هذا الرأي هو مستنبط من الفكر الماركسي، حيث نجد «ماركس» في كتابه "رأس المال" يوضح في فصل كامل ما يسمى بـ "نظرية القيمة" فيقول: "إن القيمة الاستعمالية في الإنتاج البضاعي بصورة عامة ليست شيئاً يجب لذاته، إنّها لا تخدم إلاّ كحامل قيمة."[30] ومن هنا، فإنّ القيمة النقدية للأشياء عند «ماركس»، لا تعني أكثر من أنّها تحمل القيمة التبادلية بين السلع وقيمتها، بمعنى أنّه يشترط أن تكون القيمة التبادلية، معادلة للقيمة الاستعمالية النفعية، أي أن يكون نافعاً، فيضيف: "يجب أن تكون الوسائل قد خدمت فعلا في إنتاج قيمة استعمالية، ولا أهمية بالنسبة إلى القيمة لنوع القيمة الاستعمالية التّي تحملها، ولكن يجب أن تحمل قيمة استعمالية."[31] وهنا يؤكد «كارل ماركس» على وجود قيمة استعمالية للبضائع، والأشياء المباعة، وهذا ما يؤكد عليه الكاتب.

"كل هذه البضائع المباعة هنا، هي بقايا مهشمة، لا تليق للاستعمال، فلماذا ينكب عليها الناس باعة وزبائن. سألته فبادر برهما وكأنّما كان متهيأ للجواب – :أهاه هذه هي إحدى حقائق الزمن الحراشي. الأشياء هنا تكتسب أهميتها من ذاتها، من قيمتها الاستعمالية. الطائرة التّي مرت في الأجواء القريبة منذ برهة، هل تنبهت لها . –أبدا – .إنك فعلا موغلة في الزمن الحراشي. أنّه لا أحد ينتبه إليها في هذا الزمن، إلاّ إذا سقطت وتهشمت. سيتسابقون إليها، وسنرى بعد أيام قطعها تباع هنا. تباع وتشتري تلقى اهتمام الزبائن الكامل."[32]

إذن نلاحظ ذلك التطابق بين «ماركس»، وبين الكاتب في قضية المبادلات التجارية، وقيم الاستعمال، حيث يعمد الكاتب على إبراز ذلك التكالب على الأشياء عديمة القيمة وعديمة الاستعمال، وهذا الجانب السلبي الذي يكرس التكاسل، والابتعاد عن الثورة الصناعية الحقيقية، التّي تمكن الطبقة الكادحة من إنتاج سلعها بنفسها، وفق قيم استعمالية حقيقية، وهذا ما تنادي به الماركسية التّي ترى أنّ "البضائع تظهر إلى الوجود بشكل قيم استعمالية، أو أجساد بضائع،

كالحديد، والنسيج، والحنطة، وما إلى ذلك. وهذا هو شكلها الطبيعي الأولي. ولكنها لا تغدو بضائع إلاّ بحكم طابعها المزدوج، إلاّ لكونها مواد استعمال، وحاملات للقيمة في آن واحد."[33]

والقيمة التّي تحملها هي نتاج العمل. لذا نجد «الطاهر وطار» متأثراً بمفهوم القيمة الاستعمالية في المبادئ الماركسية، حيث يريد أن يربطها بواقع السوق الجزائري الذي تغيب فيه معنى القيمة الاستعمالية، وتحضر فيه الفوضى بمختلف أشكالها.

من هنا نرى أن الرؤية الاقتصادية للطاهر وطار هي رؤية ماركسية تهدف إلى إعادة تشكيل وعي جديد بالاقتصاد، باعتباره هو المحرك الأساسي للبنية التحتية والبنية الفوقية، وذلك من أجل الانتصار للإنسان الكادح المغيّبٌ وعيه.

6-الرؤية الانسانية:

في الحقيقة كل الرؤى السابقة هي دفاع عن الانسان والدعوة إلى تحرره من كافة القيود التي تقيّده وتكبّله. وربما يمكننا أن نحصر الرؤية الانسانية هنا في الدفاع عن المرأة، باعتبارها عنصر ضعيف في المجتمع، فالكاتب لم يغفل عنها بل انتصر لها من خلال نقد واقع المرأة العربية المسلمة التّي تعاني أشكال العبودية الحديثة، "فوضع المرأة هو المؤشر الأكثر وضوحا، وتعبيراً لتقييم نظام اجتماعي ما، وسياسة دولة ما."[34] هذا النظام الاجتماعي الذي يتواطأ مع سياسة الدولة ضد المرأة، فيجعل منها ذلك الكائن الذي لا يصلح إلاّ للجنس، وللأعمال المنزلية، في حين تدعو الماركسية إلى دمج المرأة في عالم الشغل، جنباً إلى جنب الرجل، مع الحفاظ على حقوقها المشروعة. وبذلك تكون المرأة قد تحرّرت من العبودية داخل المنزل، ومن العبودية في دور البغاء.

فمنذ البدايات الأولى للماركسية، احتلت قضية تحرّر النساء، المكانة المركزية في تفكير الماركسيين، إذ نقرأ في كتاب "مبادئ الشيوعية"، الذي كتبه «إنجلز» في إجابة له على سؤال ماذا سيكون تأثير المجتمع الشيوعي على العائلة؟ فيرد بضرورة " تحطيم حجري الأساس اللتان يقف عليهما نظام الزواج السائد حتى اليوم: التبعية، المشروطة بالملكية الخاصة، للمرأة اتجاه زوجها وتبعية الأطفال اتجاه الآباء. —ويضيف: إن مشاعة النساء علاقة تنتمي بأكملها إلى المجتمع البرجوازي، والتي تجد اليوم تعبيرها الكامل في البغاء. لكن البغاء يجد جذوره في الملكية الخاصة وسيسقط بسقوطها. وهكذا، فإنّه بدل أن يبني المجتمع الشيوعي مشاعة النساء، سوف يضع حدا لها"[35].

فالماركسية تربط وجود دور البغاء بالمجتمع البرجوازي الباحث عن اللذة، والاستمتاع على حساب الطبقة الكادحة، واعتبار المرأة بضاعة تدخل في الملكية الخاصة للفرد بمجرد دفع المال. لكنها تدعو بدورها إلى وضع حدّ لهذه الظاهرة، بتحرّر المرأة من تلك التبعية والمشاعة.

ولأنّ الكاتب يملك رؤية كونية، لا تخرج عن رؤية الجماعة التّي ينتمي إليها، فهو يدافع وينافح عن نفس المبادئ، بتحرّر المرأة من ملكية الرجل في المنزل، وتحرّرها خارجه، باعتبارها سلعة تباع وتشترى. وهو في هذا الصدد ينقد المجتمع والسلطة في علاقتها مع المرأة واستغلالها، فيصف لنا في رواية "عرس بغل" المرأة، وما تعانيه، من خلال تواجدها في المواخير، التّي تعتبر أمكنة عبودية لها، تعبر عن واقعها المرير في المجتمع الذكوري، الباحث عن الملذات في جسدها الضعيف، واستغلال وضعها الاجتماعي، والاقتصادي، من أجل استباحة جسدها.

"فهي دائما ككلبة السيرك، تؤدي الأدوار التّي تدرب عليها. وبصرها عالق بالأيدي المعلنة لقطعة السكر. يقينا أن أنينها خال من النزعة الإنسانية. أنين لا يحمل شحن التطلع، أو اللوم، أوحتى الرجاء. أنين توجع لا غير. إنّها مجردة من الإنسانية، وعلى استعداد تام لأن تصير سمكة، أو كلبة، أو بغلة، أو أي حيوان آخر. لا تعرف من الحياة، إلاّ ما يمر على حاسة ذوقها . المسكينة، معروضة هناك كبركة ماء دافئ. يغطس فيها كلّ قادم. كلّ مستقبلها في شبابها. ما أن يذوي، حتى يقذف بها في الشارع، لتترك مكانها لمن هي أدفأ. لا تطمع في بنت، أو ولد، أو أمومة، أو حنان." [36]

وما النعت الذي أطلقه الكاتب على نساء المواخير "كلبة سرك" إلاّ توصيفاً لحالة المرأة التّي تؤدي الأدوار المطلوبة منها، مقابل فتات، في حين أنّ صاحب السرك هو المنتفع الأساسي من هذا العمل.

ومن هنا فإن الكاتب أراد ابراز ظاهرة معاناة المرأة في المجتمعات الذكورية والدعوة إلى النظر إليها بنظرة إنسانية، باعتبارها إنسان يمثل النصف الآخر للرجل، وقوة أساسية في بناء المجتمعات.

7-الرؤية السياسية:

يعتبر «الطاهر وطار» من رجال السياسة، ومن المثقفين الذين لم يستكينوا ولم يخضعوا للسلطة وإملاءاتها، فجرأته ومعرفته لخبايا الحزب الحاكم، جعلت منه يفتح الكوّة ليقتحم تلك الدهاليز المظلمة في دواليب السلطة، بدءً من نقد الثورة التحريرية وما شابها من صراعات سياسية

وايديولوجية، مروراً بالمرحلة الاشتراكية، ووصولا إلى مرحلة العشرية السوداء. وقد عرف الكاتب بنقده اللاذع وتعدي كل الخطوط الحمراء. كيف لا؟ وموضوع الخلافات داخل الثورة، يصعب على الروائيين في تلك المرحلة الولوج إليها بالنقد، أو بمجرد التشكيك في أحداثها، "فعندما يعاود الروائي النظر في تاريخ الثورة بما انطوى عليه وعيه الجديد، فإنّه يخرجه من الوثوقية إلى النسبية بفعل هامش الحرية، واتساع المتخيّل الروائي، ولذلك فإنّ الصّورة التّي انتهى إليها بعد جهد، وعناء هي صورة تنكّر للكثير مما استقر في أذهان كثير من الناس عن تاريخ الثورة"[37] التّي طالما قدّسها الشّعب الجزائري، بل والعربي، وحتى العالمي. ويعتبر هذا الخروج عن خط السلطة، التّي طالما اجتهدت في رسم وعي شعوبها بتقديس الثورة التّي يستمدون منها شرعيتهم.

غير أنّ الكتابة في هذا الصدد، لم يكن بالأمر السهل عند «الطاهر وطار»، حيث يصرح في هذا الصدد فيقول: "كتبت الرواية –"اللاز"– في ظروف صعبة جدا بين 1965م و1972م أي على إثر انقلاب 1965 الذي لم تبرز هويته منذ البداية، فظهرت حركة ارتداد عن الاشتراكية وأصبح الشيوعي يخاف على نفسه، ومع ذلك كتبت بحماس وإصرار واستنسخت من الرواية ثلاث نسخ واحدة عندي، وواحدة في مكان آمن وواحدة لصديق، وعندما صدرت بقيت شهراً كاملاً وأنا أنام بثيابي خوفاً من مداهمة بيتي وحملي إلى السجن، ولكن ذلك لم يحدث واقتنعت السلطة بأنها تؤسس الدولة، ونحن الأدباء نؤسس تقاليد أدبية وثقافية جيدة وواعية ومغيرة"[38].

هكذا كانت الرواية المشتغلة على السياسة تدخل غمار الصعاب، لأنّها تبوح، وتقول ما لا يقوله الآخرون، لأنّها عين المجتمع الحقيقية، تنقل له تفاصيل الحياة، وتفاصيل الحكم دون مواربة أو مجاملة، وهي بذلك تهدف إلى بناء وعي مجتمعي جديد ينهض بالأمة ويفكّها من الأغلال.

كما نجد الكاتب يتطرق إلى قضية الحكم والصراعات حول كرسي السلطة، برجوعه إلى التراث والأحداث التاريخية المليئة بالنماذج حول الصراعات السياسية لتولي سدّة الحكم، خاصة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، ونجده يتطرق إلى هذا الأمر في روايته "عرس بغل" حينما يقول:

"أنت الآن الخليفة العباسي، المعتز بالله بن المتوكل. أخوك المنتصر، قتل أباه المتوكل ليستولي على الخلافة، ويموت بعد ستة أشهر بسم طبيبه بن طيغور جئت لتسد الفراغ الذي خلفه هروب المستعين بالله إلى بغداد. قادة العساكر يباعيونك، فما أنت فاعل"[39]

هنا يقدم الكاتب للقارئ أسلوباً يضعه في قلب معركة الحكم، والسلطة. وهذا الأسلوب من الحوارية ساعد الكاتب على تعرية الذّات، والواقع الملتبس بالتاريخ ليعيد إنتاجه على مستوى النصّ. ليؤكّد على أنّ اعتلاء سدّة الحكم في البلدان العربية عبر الأزمنة، لم يكن إلاّ بالانقلابات، والصراعات الداخلية بين أصحاب البيت الواحد.

ويستمر الكاتب في نقد السلطة من خلال رواية "الحوات والقصر" ورحلة البحث عن الوعي، وبالرغم من عدم واقعية الأحداث في الرواية المتخيّلة، إلاّ أنّ القارئ المتعمق، والمدرك للواقع يفهم مدى الترابط الحاصل بين أحداث القصة، وبين ما يجري بين الحكام، والرعية، خاصة في المجتمع العربي، وإن كنّا أكثر تحديداً المجتمع الجزائري، الذي كان يستهدفه «الطاهر وطار» من خلال روايته.

"لا يذكرون آخر نذر باسم صاحب الجلالة. لم يتجرأ أحد في العهود الأخيرة عن إتيان ذلك. إن أحسن خدمة تقدم للقصر هي الابتعاد عنه.. هكذا راج بين الرعية. فلم يعودوا يتقربون لا من القصر، ولا من صاحب الجلالة، امتثالا وطاعة. حتى أن الابتعاد تعدى حدوده العادية، وصار بالكلام والحديث أيضاً."[40]

هكذا يصور لنا الروائي حال الرعية في قرية «علي الحوات»، وفي باقي القرى، حيث تعودوا على اعتبار القصر مكاناً معادياً، يجب الابتعاد عنه بكلّ الوسائل. وقد درجت الرعية على تلك العلاقة المباعدة بينهم وبين القصر، ولم يتجرأ أحدهم على الاقتراب منه، ولو بالكلام. وما ذاك التوصيف إلاّ تجسيد للوعي الفعلي لدى الشعوب العربية، وعلاقتها بالحكم، باعتبارها شعوباً، خاضعةً، خانعةً للسلطان، لا يمكن في أي حال من الأحوال الخروج عنه.

"دخولك إلى القصر يمكنك من التشبع بالحقيقة، ومهما كنت متحفظاً، ومهما أخفيت منها، ومهما غاب عنك مغزاها، فإنك ستجعل غيرك يطلع على جزء منها، أو على الأقل، على ملامحها، وهذا يهمنا.."[41]

وهذا ما يهم في الحقيقة «الطاهر وطار»، وهو تعرية القصر من الداخل، من خلال فضح السلطة، وفضح سياساتها القمعية اتجاه شعوبها، واتجاه كلّ من يقترب من القصر، سواء بنية حسنة، أو سيئة، وقد جعل «الطاهر وطار» شخصية «علي الحوات» الخيرة هي من ستقف على حقيقة القصر، وساكنيه، لتنتهي القصة بمعاناة «علي الحوات» داخل القصر . غير أن الصدمة

الكبرى التّي تلقاها هو ذلك العذاب، والتنكيل الذي ألم به من طرف إخوته المكلفون بحراسة القصر: «سعد»، و«مسعود»، و«جابر». وكما هو معروف في الرواية، فإنّ هؤلاء الأخوة هم مجرمون، وقطاع طرق، ولصوص، تقلدوا مناصب الحراسة في القصر، وذلك في إشارة واضحة للوضع القائم في السلطة. ومع أنّ البطل انهزم في نهاية الرواية، إلاّ أنّه فاز معنوياً بتحقق المطلب الأساسي، وهو وعي الرعية بضرورة الاتحاد، والتضامن ضد كلّ أشكال الظلم، وعدم الخضوع، والخنوع لجبروت السلطان، ومحاولة الانتقال بالوعي الفعلي القائم على السلبية، إلى وعيٍ الممكنٍ قادرٍ على التغيير.

غير أننا نجد في ثنايا الخطاب الوطاري وخصوصاً في رواية "العشق والموت في الزمن الحراشي" تعاطف الكاتب مع السلطة بقيادة الرئيس الراحل «الهواري بومدين» الذي قد يمثل الاشتراكية والدفاع عنها في تلك المرحلة.

"-سألته مرة، هل يحب الهواري، ارتسمت وسط لحيته بسمة وهمس: -أيهما أكثر؟ الثقة أم الحب؟ إنني أثق فيه. مصيرنا واحد. كلانا يغالب الزمن الحراشي. كلانا غير واثق من الوسائل التّي بين يديه. أنّه مثلي يصطاد في الماء العكر."[42]

فالكاتب هنا يبدي ثقته في السلطة باعتبارها تبنت الاشتراكية المنبثقة أصلا من الماركسية، لذلك نجد الكاتب يخرج من نقد السلطة إلى الانسجام معها، وذلك لانسجام الرؤى. كما نجد أغلب شخصيات الرواية المدافعين عن الاشتراكية، يمجدون أفعال «الهواري» ويكنّونَ له الحب، والود، والاحترام. فمثلاً «عيسى بوعين»، كاتب القسمة نجده يعبر في خاطره عن ذلك الحب والاحترام.

"إنهم مجاهدون. حقاً. ثوار. يستحقون الدعم والإعانة. وحتى لو أنهم ليسوا كذلك. فمجرد قدومهم إلينا، هاتفين بحياة الهواري، يضعهم في مصاف المجاهدين. من يحب الهواري في قريتنا؟ أبدأ بنفسي قبل غيري. أنا شخصياً أحبه، أمي أيضاً تحبه. لكن أبي وكل تجار القرية يكرهونه."[43]

وبالرغم من هذا التوافق، إلا أن الكاتب لم يبد امتعاضه من توليه السلطة عبر الانقلاب على الحكومة المؤقتة، بل جابهها بكلّ شجاعة، باعتباره مثقفاً يؤمن بالقيم الديمقراطية.

ولأنّ علاقة المثقفين والكتاب الأحرار بالسلطة هي دائماً علاقة تنافر، وعلاقة حذر، بالرغم مما يكون من توافق في الرؤى بينهما. لذا كان على الكاتب القيام بالتحدي، لأنّه يرفع لواء الدفاع عن شعبه، والمتكلم باسمهم، وباسم طموحاتهم.

"كان علي أن أتحداه، بحكم ممارسة الكتابة، وبحكم تواجدي السياسي، معه، وأيضاً بحكم يساريتي التّي لا يمكن أن أتطهر منها كفنان، محكوم عليه بالتوق إلى الأمثل فالأمثل."[44]

بالرغم من التوافق الإيديولوجي بين السلطة الجديدة، وبين الكاتب، إلاّ أن هذا الأخير يأبى الانغماس معها في كلّ الأمور، لأنّ الكاتب فنّان يتوق دائماً إلى الأمثل، فالأمثل، والانقلاب ليس سوى صورة تعكس غياب ثقافة الحوار والديمقراطية، والخروج عن المسار الطبيعي للحكم. وقد كان لذلك الاعتراض الأثر البالغ على «الطاهر وطار»، إذ أُعتبر بداية خروجه من حزب جبهة التحرير، كما يوضح في إحدى اللقاءات الصحفية: "قضية فصلي من جبهة التحرير الوطني بدأت جذورها يوم الانقلاب على الرئيس أحمد بن بلة في 19 جوان 1965، ومن ساعتها كنت أعرف بأنني مستهدف، وكنت مصراً على النضال ضد الانقلابيين وكتاباتي شاهدة على ذلك، وكنت مصراً على البقاء في الحزب، وهذ الأمر موجود في رواية "اللاز"، حيث «زيدان» رفض الاستقالة، وترك الثورة أيضاً."[45]

وهنا يبرز دوره كمثقف، وككاتب يساري، لا يهادن السلطة، ولا يرضى بأنصاف الحلول التّي قد يلجأ إليها السياسيون، وصناع القرار. لذا فهو يلجأ دائماً إلى تحدي السلطة، لأنّه الصوت المعبر عن هموم الشعوب وعن طموحاتها وآمالها.

خاتمة:

في آخر هذا المقال يمكننا القول بأن الخطاب الوطاري جاء ضمن فترة زمنية امتازت بسيطرة التوجه الماركسي والاشتراكي في العالم، وبما أن الكاتب يظهر في مختلف أعماله السردية، وحواراته الصحفية منتصراً لتلك الايديولوجية، فإنه أصبح هو المعبر عن طموحات وآمال تلك المجموعة والمتكلم باسمها، مستعملاً التقنية السردية، وما تتيحه من تخييل يسمح له بالتطرق إلى مختلف القضايا المجتمعية من سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وثقافية... وغيرها من القضايا التي عالجها بكل اقتدار، لكن برؤية ايديولوجية لم تخرج في عمومها عن الفكر الجدلي المادي، طامحاً بذلك إلى

تكوين مجتمعي جديد يطمح إلى وعيٍ ممكنٍ ومتخلٍ عن وعيٍ زائفٍ طالما كان هو العائق لتقدم الشعوب.

هوامش:

[1]– بون باسكادي، البنيوية التكوينية ولوسيان غولدمان، من كتاب لوسيان غولدمان وآخرون، البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، تر: محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت لبنان، ط2، 1986م، ص48

[2]بشير بويجرة محمد، الشّخصية في الرواية الجزائرية (1970-1983)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ط)، (د.ت)، ص70

[3]– زهرة ديك، الطاهر وطار هكذا تكلم.. هكذا كتب، منشورات دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، دط، 2013، ص45، حاوره: الخير شوار، أصوات الشمال، 2010/08/17

[4] الطاهر وطار، رواية اللاز، موفم للنشر الجزائر، 2013، ص98

[5] الطاهر وطار، رواية اللاز، ص99

[6] الطاهر وطار، رواية اللاز، ص97

[7] الطاهر وطار، رواية اللاز، ص89-90

[8] الطاهر وطار، رواية العشق والموت في الزمن الحراشي، موفم للنشر الجزائر، 2013، ص120

[9] الطاهر وطار، رواية العشق والموت في الزمن الحراشي، ص 240.

[10] الطاهر وطار، رواية عرس بغل، موفم للنشر الجزائر، 2013، ص52

[11] الطاهر وطار، رواية عرس بغل، ص106

[12] محي الدين اللاذقاني، ثلاثية الحلم القرمطي – دراسة في أدب القرامطة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1993، ص91

[13] الطاهر وطار، وحدتنا الثقافية مصدر قوتنا، موقع صحفي http://www.sahafi.jo/arc/art1.php?id=5045f7e3a6aacd59b39e58cb4de092f57da095ed نشر بتاريخ 20أوت 2010

[14] خديجة الشامخة، الطاهر وطار والرواية الصوفية – رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، مجلة البحوث والدراسات، جامعة الوادي، العدد14، 2015م، ص 255

[15] الطاهر وطار، رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، كلمة لا بدّ منها، موفم للنشر الجزائر، 2013، ص10-11

[16] زهرة ديك، الطاهر وطار هكذا تكلم.. هكذا كتب، مرجع سبق ذكره، ص46

[17] الطاهر وطار، رواية عرس بغل، ص32-33

[18] الطاهر وطار، رواية عرس بغل، ص30

[19] الطاهر وطار، رواية عرس بغل، ص47

[20] الطاهر وطار، رواية الزلزال، موفم للنشر الجزائر، 2013، ص8

[21] ينظر: زهرة ديك، الطاهر وطار هكذا تكلم.. هكذا كتب، مرجع سبق ذكره، ص21

[22] فيصل دراج، الماركسية والدين، دار الفارابي، بيروت لبنان، ط2، 1978، ص9-10

[23] الطاهر وطار، رواية الشمعة والدهاليز، موفم للنشر الجزائر، 2013، ص50

[24] الطاهر وطار، رواية الشمعة والدهاليز، ص24

[25] الطاهر وطار، رواية الشمعة والدهاليز، ص25

[26] الطاهر وطار، رواية الشمعة والدهاليز، ص25

[27] - *Karl Marx, A Contribution to the Critique of Political Economy, Preface Vol1, 1970, P12*

[28] - *Karl Marx MESW, Vol*1 . P125

[29] الطاهر وطار، رواية العشق والموت في الزمن الحراشي، ص56-57

[30] كارل ماركس، رأس المال، تر: محمد عيتاني، مكتبة المعارف، بيروت، 1956، دط، الجزء الاول ص254.

[31] كارل ماركس، رأس المال، مرجع سبق ذكره، ص256.

[32] الطاهر وطار، رواية العشق والموت في الزمن الحراشي، ص59

[33] كارل ماركس، رأس المال – نقد الاقتصاد السياسي، تر: فهد كم نقش، ج1، دار التقدم، موسكو،1985، ص71

[34] Trotsky, Writings of Leon Trotsky 1937-38, Pathfinder. Edition2, 1976, p. 170

[35] ينظر: ماركس وإنجلز، *مبادئ الشيوعية، 1847، كتاب الكتروني*

http://www.mediafire.com/file/al9zr2g41qaevyc/ مبادئ+الشيوعية+انجلز.pdf، *ص16*

[36] الطاهر وطار، رواية عرس بغل، ص46

[37] بومدين صالح، رواية الاز للطاهر وطار، أو المسكوت عنه في التّاريخ الثورة، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، جامعة سكيكدة، العدد13، 2016، ص66

[38] محمد بن رجب: حوار مع «الطاهر وطار»، جريدة الصباح التونسية، 04/17. /1984، ص25 نقلا عن بومدين صالح، رواية الاز للطاهر وطار، أو المسكوت عنه في التّاريخ الثورة، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، جامعة سكيكدة، العدد13، 2016، ص70

[39] الطاهر وطار، رواية عرس بغل، ص157

[40] الطاهر وطار، رواية الحوات والقصر، موفم للنشر الجزائر، 2013، ص11

[41] الطاهر وطار، رواية الحوات والقصر، ص27

[42] الطاهر وطار، رواية العشق والموت في الزمن الحراشي، ص54

[43] الطاهر وطار، رواية العشق والموت في الزمن الحراشي، ص112

[44] الطاهر وطار، رواية العشق والموت في الزمن الحراشي، ص176

[45] زهرة ديك، الطاهر وطار هكذا تكلم.. هكذا كتب، مرجع سبق ذكره، ص47 حاوره: الخير شوار/أصوات الشمال 2010/08/17.